تجربة "مشروع المدية .. مشهد ثقافي جغرافي" من زاوية إرشادية

يوسف الخواجا

عندما يكتب القلم تجربة وأفعالها في زمن الصمت والقعود فدعه يكتب! فإنه بنسجه الحروف يغير فلسفة الحياة. من هذا الإيمان شرعت أكتب تجربتي كمرشد تربوي في مدرسة المدية الأساسية المختلطة، كمشارك في مشروع «قرية المدية . . مشهد ثقافي جغرافي». وعلى الرغم من أنني نقلت منها عنوة بقرار فني، فإن هذا ليس سبب الكتابة وإن لونها بحرقة ما. أما السبب الجوهري فهو انتهاء المرحلة الأولى منها بفعل تمامها وقطيعتي الرسمية عنها بفعل قرار النقل، ولهذا فكتابتها هنا هو جزء منها، سرد لها وتأمل فيها ونقد واستبصار، وهو نوع من الذهاب للآخرين لتقاسمها معهم، فقد تكون هذه التجربة خبرة، إذا ما عممت كانت سبيلاً للتغيير ومساهمة صغيرة ونوعية لإخراج نظامنا التعليمي من عتمة التلقين، الذي نتاجه جمود ذهني وقولبة للذات في أطر محددة ومتشابهة، فكم يحتاج نظامنا التعليمي إلى أساليب تعليمية حديثة تنمي الإبداع وترتقي بالطفل الفلسطيني من مستويات المعرفة البسيطة والمتمثلة في الحفظ والفهم إلى مستويات التطبيق والتحليل والتركيب والتقويم.

ظل التغيير وبدايته

مكثنا طويلاً تحت شجرة السدر الوحيدة في المدرسة، تتفاعل داخلي التناقضات ومشاعر الرفض واللامعنى، ست سنوات من العمل مرشداً تربوياً في مدرسة المدية الأساسية المختلطة لم تحقق أي توقع نبض به قلبي عند قدومي لها العام 2002. كان معي زميلي محمد الخواجا -معلم التاريخ في المدرسة- يخيم علينا الصمت، ننتظر معاً سيارة ركاب تقلنا إلى مدينة رام الله . . . . بعد ملل الانتظار حضرت السيارة وصعدنا بها كعصفوريين فرا من قفص . . . . وسط الطريق دار بيننا نقاش عابث عن وجهتنا، عرفت أن زميلي في طريقه إلى مؤسسة عبد المحسن القطان كمتدرب، وعن دورات أجهل تفاصيلها لكني أعي محاكاتها للبعد النفسي في داخلي، الأمر الذي دفعني لسؤاله عن إمكانية الانضمام والتدريب، تشجع وأخبرني عن وجود مشروع سوف يبدأ التحضير له اليوم وبإمكاني الحضور.

حضرنا للمؤسسة وبدأ الاجتماع، مجموعة من المعلمين والمعلمات حضروا لافتتاح مشروع جديد عرّفه مسؤول المشروع مالك الريماوي، بأنه: مشروع تحت اسم: «مشاريع صغيرة في المدارس»، حيث اقترح على المجموعة أن يحضر كل مشارك فكرة لمشروع ما يرغب في تطبيقه في مدرسته، مشروع ينبني على اهتمام الطلاب وحاجياتهم، ويقوم على مشاركتهم الجوهرية فيه أولاً، ويمثل نقطة تماس مع المناهج المدرسية ويأخذها إلى الواقع والحياة ثانياً، وينهض على فكرة نوعية تمثل تغييراً في التعليم والحياة ثالثاً، ويقوم مركز القطان بالإشراف على المشاريع ودعمها على الأصعدة كافة بقدر المستطاع، وبعد أن يتم دراسة المشاريع المقترحة يبدأ العمل على تطبيقها بشكل فردي أو جماعي، وتركت الاقتراحات مفتوحة، حتى اللقاء المقبل.

خرجنا من الاجتماع وعلامات العصف الذهني تموج بنا، فكان همي هو تطوير مدرسة المدية، وتدور بداخلي أفكار كثيرة لتطويرها، اجتمعنا أنا وزميلي محمد كي نقرر ماهية المشروع، فكان في البداية عمل بحث يقوم به الطلبة حول مشاكل المدرسة واحتياجاتها وصعوبة التعليم بها، وتطور الأمر ليحول البحث إلى فيلم قصير يظهر المدرسة ومعاناة الطفل فيها والضغوطات التي تجثم على صدرها.

مدخل تاريخي: بدايتي مع الإرشاد والمدرسة

إن البداية تعود إلى سنوات مضت، إلى يوم حملت فيه رزمة أوراق رسمية تعني: تعييني مرشداً تربوياً في وزارة التربية والتعليم، وانطلقت إلى مدرسة المدية الأساسية المختلطة، والسعادة تغمرني، فقد حصلت على وظيفة بعد تذوق لوعة البطالة ثلاث سنوات -حالي في ذلك كحال الكثيرين من زملائي الخريجين- وكانت سعادتي مختلطة بقلق يتنامى بين ضلوعي، فاستعدادي لوظيفة الإرشاد ذاتية ارتجالية، لم تتم تهيئتي لها بمهارات وآليات عمل من قبل التربية والتعليم كمدخل للإرشاد التربوي في المدارس، سوى أوراق جلها قوانين.

وقفنا -أنا وبعض المعلمين- على مدخل القرية، حيث المدرسة أمامنا، كانت مثل حافلة تقف في محطة لنقل الركاب، أمامها الشارع الرئيسي، وعلى جانبيه غبار تراب أبيض سميك، كأنه رمال متحركة، زاد من فتاته مرور الطلبة عليه وبعض حيوانات من ماعز ودواب، تاركة روثها يختلط بهذا الغبار ليصبح مع حرارة الشمس ووهج ذلك الصباح يملأ الصدر برائحة عتيقة تفتح أرشيف الذاكرة، لتقرأ بدائية بسيطة وطمأنينة مفقودة بماض مغتصب وحاضر مؤلم ومستقبل غامض. إنها الصورة الأولى التي على آدم أن يكونها عن أرضه الجديدة، نعم إنها لحظة هبوط سماوي يعرفها كل معلم أو مرشد سيقرأ هذه المقالة، ويعرف كم أن هذه

الصورة الأولى التي يمكنني تسميتها صدمة اللقاء الأول ستبقى مهيمنة وفاعلة، ما لم تحضر تجربة أخرى تفوقها حرارة وقوة، فتصهرها وتحل مكانها. إن هذه الصورة هي الآن في طريقها إلى الزوال . . . .

ثلاث خطوات فقط وتصبح فوق أرض المدرسة، يرحب بك المعلمون وتستقبل رشقات كالمطر من عيون أطفال المدرسة وكأنهم ينظرون إلى جسم غامض يتعطشون لمعرفته. توجهت مباشرة إلى غرفة المدير كي أقدم له أوراقي وأعلمه بتعييني في المدرسة مرشداً تربوياً، كانت غرفته نصف غرفة يشاركه فيها (سكرتير المدرسة) وعلى جوانبها الملفات والمكاتب تعيق الحركة. وضحت للمدير مفهوم الإرشاد ودوره في المدارس، رحب بي وأبدى استعداده لدعمي قدر استطاعته، وهذه هي البداية التي تتضمن خطة ارتجالية كانت في داخلي وهي المعرفة والتعارف. بدأت أصور المدرسة بنظراتي، فكانت مدرسة أساسية صغيرة لا تصلح أن تحمل هذا الاسم، مستطيلة الشكل، إنها تشبه الصندوق، لا، هي فعلاً تشبه القبر، مدرسة محفوفة بمنازل المواطنين التي أصبحت جزءاً من همهم، وهم جزءاً من همها، فهي تزعجهم بصوت طلابها، وهم يحاصرون إمكانية امتدادها وتطوير بيئتها، عدد غرفها تسع، إضافة إلى غرفة معلمين، وشبه غرفة للمدير. تفتح المدرسة أبوابها باتجاه الشرق نحو الشارع الرئيسي لتشرق الشمس محرقة خضرة الطفولة داخل غرفها. قرع الجرس، واصطف الطلبة في الساحة فملئوها مكتظين، فيها شارع يفضي إلى الشارع الرئيسي، تختصر الحيوانات والدواب طريقها من وسط الساحة لتصل حظائرها، فلا جدار يحمي قدسية المدرسة، ولا ساحة تتسع لرف من العصافير كي تزقزق، أو لزهرات قد تتفتح، ولا مقاعد تريح الأطفال من مسافة الطريق، ولا مظلة تحميهم من حر الصيف ومطر الشتاء.

ينطلق الطلبة نحو صفوفهم منهكين من معاناة كل صباح بنفسية مخنوقة نحو غرف صفية خانقة ثقلت بعدد الطلاب الذي تجاوز الأربعين في كل غرفة. يدخل إليهم المدرس وكأنه سجين زج بزنزانة ينتظر الإفراج عنه بقرع الجرس، معلناً انتهاء الحصة من جهة، والإفراج عن المعلم والتلاميذ من جهة ثانية ولو لبضع دقائق.

عمل المدير ما عمل من دعوات ونداءات استغاثة للتطوير والتغيير في المدرسة، فقد عقد اللقاءات والاجتماعات مع الأهالي وأطلعهم على ظروف المدرسة المزرية، وخاطب المؤسسات لتنظر بعين الرحمة على ظروف الطلبة وبيئتهم المدرسية، ولكن لا حياة لمن تنادي.

أنا -كمرشد تربوي- كنت عبئاً على كاهل المدرسة، فالمرشد بحاجة لغرفة خاصة يمارس فيها دوره وقاعة يمارس فيها فعالياته ومشاريعه المختلفة، ولكن ضيق المدرسة لا يسمح بذلك، فركزت عملي على تحسين البيئة المدرسية، وأعدت محاولات المدير بصوت آخر، فعقدت الاجتماعات مع الأهالي مرات عدة، فكان يحضرها القليل والوجوه تتكرر، وخاطبت المؤسسات الحكومية والخاصة، فلم أجد من يتبرع بشراء قطع الأرض المجاورة للمدرسة، حتى أدركت أن الأهالي قد فقدوا مبدأ التعاون والعمل التطوعي، فمنذ تعييني العام 2002 وأنا أعاني، لم أجد خصوصية الإرشاد واحتياجاته حتى فشلت مشاريعي الإرشادية، وتبعثرت أوراقي، وهدمت جسور الثقة بيني وبين طلبتي، فوجودي كمرشد أصبح بالنسبة لهم روتيناً مملاً. أخذت أنطوي على نفسي وأدخل في احتراق نفسي منبعه احتراق وظيفي، وسببه توقعات بسيطة وضعتها على كاهلي بأن أنقذ الطفولة في القرية وأنير مستقبلها، هكذا وعلى الرغم من صرخات الاستغاثة، تركت وحيداً مع معاناتي بلا سند ولا دعم ولا تعزيز.

المشروع كصورة أخرى ومدخل جديد

اليوم أصبحت أستطيع أن أكتب ما كتبت سابقاً، وأتمكن من مواجهة الصورة الأولى. لماذا، لأني أملك صورة أخرى، صورة لفعل وجهد وعلاقة بيني وبين عملي وزملائي وطلابي، صورة تكونت داخل هذا المشروع، مشروع بدأ متلعثما في لقاء «القطان»، وتبعته اجتماعات عدة متواصلة مع زميلي (محمد الخواجا)، تخللها اجتماعات للمجموعة الكلية في مركز القطان، تم خلالها صياغة مسمى ورؤيا عامة للمشروع ليشمل القرية بأبعادها التاريخية والجغرافية والثقافية والاجتماعية والتراثية، وأن توضع هذه الأبعاد في سياق تعليمي يقوم الطلبة بتطبيقه. إن السبب في تبني صيغة المشروع أن معاناة الطالب في مدرسة المدية وفقدانه البنية التحتية لجسمها، هو نتاج وامتداد لظروف قرية مهمشة، محاطة من كل الجوانب بتحديات وصعوبات استحال تجاوزها، فأهل القرية باتوا بعيدين كل البعد عن العمل الجماعي وتشكيل الأندية والجمعيات التعاونية والمؤسسات القروية، التي قد تساهم في النظر للمدرسة من زاوية التغيير، واهتموا بمصالحهم الشخصية -إلا ما ندر- حتى أصبحت أعداد الطلبة تتزايد ومناخ المدرسة يتراجع.

من جهة أخرى، فما زال الآخر المحتل ينتهز كل فرصة للاستيلاء على أرض القرية، ينمي سياسة الترحيل في قلوب أبنائها، بإضافة المعيقات أمام خلق مستقبل آمن وفرصة حياة، فقام بمحاصرة القرية من الاتجاهات كافة؛ فمن جهة الغرب والشمال تحاصر القرية بخط أخضر التهم الجزء الأكبر من أراضيها، وجاء جدار الفصل العنصري ليسلخها عن جذورها ويضعها في زاوية جغرافية تزيد من عزلتها وانكماشها، ومن جهة الشرق تجثم على صدرها المستوطنات الإسرائيلية، وتلتهم ما تبقى من أراضيها، محولة بذلك القرية لزنزانة في سجن كبير، أما شمال القرية فمطوق بمياه عادمة، تجري في واديها. مخلفات استيطان أبى إلا أن يمحو أصالة القرية الفلسطينية ويستبدلها بمغتصبين منبعهم الآخر المحتل.

إن جملة المؤثرات والتحديات تدفعك لأن تبحث عن سبيل نجاة، فكان هذا المشروع فرصة للتغيير. فلم يقف المشروع عند رؤية حدود المشكلة، بل بني على أن التعليم المدرسي ليس قراءة مسحية للحياة، بل عليه أن يكون انخراطاً فيها، ولذلك، فإننا رأينا أن فاعلية المشروع تكمن بمقدار أخذه الطلاب إلى واقعهم ليمسوه بشكل مختلف، يعرفوه ويغيروه، فالمعرفة الواعية هي انخراط ملموس في التغيير، الآن أصبحت الرؤيا العامة للمشروع واضحة، وباستطاعتنا أن نتذوق طعم الإنجاز، فقمنا بتشكيل مجموعات طلابية من طلبة المرحلة الأساسية العليا تجاوزت السبعين طالباً، معظمهم كانوا من الصف الثامن، وكان الهدف من هذه المجموعات أن تبلور المشروع وتشعر به كحاجة واهتمام، وهذا مقدمة لأن تعمل وتتعلم، تتعلم عن ماضيها وكينونتها وأصالتها بلا معلم يشرح

ويوضح، بل من خلال أن يبحث الطلبة أنفسهم في المراجع والأدبيات، ويعملوا المقابلات مع الأهالي وكبار السن والمؤسسات، ويوثقوا النتائج بالقلم والصورة. ليكن الطالب في هذه العملية معلماً ومتعلماً.

فكرة المشروع

الفكرة بسيطة: أن يجمع الطلبة معلومات عن قريتهم، عن تاريخها وجغرافيتها ومساحتها وعدد سكانها وثقافتها العامة في الماضي والحاضر، والتحديات التي واجهتها القرية وما زالت تواجهها. هذا عمل له معنى، ولكن الأهم أن الفكرة تمت بلورتها مع الطلاب، ومن خلال اقتناعهم بها. بدأ العمل بقيام الطلبة بجمع هذه المعلومات بإشراف وتنسيق من قبلنا (مرشد تربوي ومعلم اجتماعيات) بغرض تحقيق أهداف عدة:

1. أن يوثق الطلبة ذاكرة القرية وأصالة ماضيها بأيديهم، وأن يعتمدوا المصادر البشرية؛ أي أهالي القرية كمصدر رئيسي للمعلومات، وأن يجمع الطلبة صوراً لتراث القرية وتحدياتها، ووثائق تكون دليلاً على صدقية هذه المعلومات.
2. الخروج بكتاب يحمل اسم القرية: إن هذه الفكرة فجرت عند الطلبة دافعية العمل بشكل ملفت للنظر، فلم يتوانوا للحظة بتأجيل المهمات التي أنيطت بهم، بل نظموا وقتهم بين الدراسة ومقابلة الأهالي وجمع المعلومات، وبذلوا جزءاً كبيراً من وقتهم في توثيق معلوماتهم وتبييض كتاباتهم وإعادة صياغتها. وشعرنا أن الطلبة في انتفاضة شعبية نحو التغيير، الأمر الذي أقلقنا على أدائهم الدراسي، ولكن عند مراجعة معلميهم، لوحظ أن الطلبة في نقلة نوعية من حيث التركيز مع المعلم ومناقشته، ومن حيث الانضباط الصفي وارتفاع التحصيل. والسبب في ذلك هو رغبة الطلبة في أن يصبح لقريتهم مكان على الخارطة، وتخرج من قوقعة التحديات التي عزلتها، فتقول طالبة في الصف الثامن: «أنا سعيدة كثير لإنو بدنا نعمل كتاب عن قريتنا ويصيروا الناس يعرفوها»، وقد شاركها الطلبة في هذه السعادة للسبب نفسه، متلهفين حتى يتم نشر الكتاب وتسليط الضوء على قريتهم، وليكن هذا الكتاب بمثابة صرخة استغاثة يساهم في تغيير حال القرية نحو الأفضل، ويلفت الانتباه إلى القرى الفلسطينية الصغيرة التي ترزح تحت غطاء التهميش من القريب والاستهداف من الآخر المحتل.
3. أن يتعلم الطلبة سبلاً وآليات تعلم جديدة. ويوضح ذلك أحد الطلبة بقوله «لقد تعلمت أشياء ما كنت بعرفها من قبل، عرفت حياة أجدادنا البسيطة التي كانت مليئة براحة البال». لقد تفاعل الطلبة برغبة عالية مع هذه المعلومات في إطار علمي يناسب منهاجهم التعليمي، حيث قاموا بعمل أعمدة الإحصاء لعدد السكان، ولمساحة الأراضي، ورسموا المواسم، وجددوا نشاطهم بفعاليات ترفيهية مصدرها إحياء الألعاب الشعبية، ومثلوا العرس الفلسطيني التقليدي ومواسم الحصاد.

المشروع كتجربة

كانت تجربة لا تنسى، فعلى الرغم من الإرهاق والمتاعب الجسدية التي أصابتنا من متابعة الطلبة والتواصل معهم في الاجتماعات الفردية والجماعية شبه اليومية، وقراءة أوراقهم ومتابعة رسوماتهم وتدريبهم على التصوير والتنسيق لدورات تطور مهاراتهم الحياتية؛ مثل دورة الإنترنت التي حصل عليها مجموعة طلابية، وغير ذلك من العمل الدؤوب. وعلى الرغم من هذا الجهد، فإن الدافعية النفسية أزاحت وأنكرت الإرهاق، وولدت مشاعر الإنجاز، ورضا الضمير، وتأكيد الذات، والرغبة المستمرة في العمل، وهذه الدافعية نبتت من دافعية الطلبة أنفسهم للعمل، التي يعجز عن وصفها الكلام. إن النظر إلى نتائج المشروع وانعكاساته على الطلبة من زاوية المرشد التربوي، يشير إلى تحقيق معظم أهداف الإرشاد التربوي في المدارس، ومن هذه الأهداف:

أولاً. العمل على تحسين العملية التربوية: ويشمل ذلك رفع مستوى التحصيل عند الطلبة، وهذا الأمر واضح في سجل علاماتهم، وليس هذا فحسب، بل تحسنت قدراتهم الكتابية التي كانت مع بداية المشروع ضعيفة، أما في وسطه فقد تحسن خطهم وقلت الأخطاء الإملائية لديهم، كذلك فقد تدربوا بشكل فردي وكبير على إجراء مقابلة، وأخذ الملاحظات الأولية، وإعادة تذكر فحوى المقابلة وكاتبتها. وعلى الرغم من أن الطلبة المشاركين مختلفو المستويات الأكاديمية، فقد زاد التزامهم بالقوانين المدرسية، فقل غيابهم وتأخرهم الصباحي، وزاد انضباطهم في المدرسة، كذلك استطاع الطلبة تنظيم وقتهم، فتقول إحدى الطالبات: «أصبحت الأمور لدي واضحة، أعود من المدرسة أغير ملابسي وأتناول غدائي، أرتاح وأحضر ما علي من دروس، ثم أرتاح حتى المساء، وأذهب إلى مقابلة جدتي لأستمتع معها وهي تحدثني عن أيام زمان». ليس ذلك فحسب، بل أصبحوا قادرين على معالجة المشاكل التي تعترضهم بسبل حوارية حضارية، فعندما طردت مجموعة التصوير من قطعة أرض أرادوا تصوير بيت قديم فيها، عرفوا خطأهم، وأنه يجب عليهم الاستئذان وإعلام صاحب الأرض المطلوب تصوير المشهد فيها، والغرض من الصورة. ومثال آخر على أسلوب حل المشاكل هو ما عملته إحدى الطالبات، فتقول «أنا معتادة أن أغضب من أي أحد يغضبني، ولكن هذه المرة الموقف يختلف، فعندما طردني جدي ورفض إعطائي أية معلومة، توجهت إلى أخي الأصغر مني لأني أعرف أن جدي يحبه كونه ولداً، فطلبت منه أن يقابل جدي، ونجح في ذلك، وجلسنا في البيت وأعدنا كتابة المقابلة». وتضيف طالبة أخرى تجربتها في مواجهة المشاكل فتقول: «عندما ذهبت إلى جدتي كانت غضبانة ورفضت مقابلتي، فقمت بمساعدتها في تنظيف البيت، وعندما انتهينا كانت مبسوطة وهادئة، فكانت فرصة لإعادة سؤالها عن موضوعي». وقد واجه الطلبة مشاكل عدة في جمعهم المعلومات وتطبيقهم المشروع، فكانوا أكبر منها، وعجزت العقبات عن إيقافهم نحو تنفيذ مشروعهم.

ثانياً. إن العمل على الصحة النفسية والاجتماعية والجسدية من الأهداف الرئيسية للإرشاد، وقد حقق جزءاً كبيراً منها، إذ أن طاقات الطلبة في هذه الفترة الحرجة والمتمثلة بفترة المراهقة قد وجهت نحو جوانب بناءة، فتوجهوا للتعرف على قريتهم، وبذلوا في ذلك طاقة عقلية وجسدية، وأصبح عملهم معنا يشعرهم بالإنجاز،

ويعزز الثقة بالنفس، ويقوي مهاراتهم الحياتية، وهذا ما لخصه أحد الطلبة بقوله «أشعر أنه أصبح لي قيمة، وأشعر بالسعادة لأني أجعل الناس يعرفون بلدي». كذلك فقد تدربوا على صياغة الأسئلة وإدارة النقاش مع كبار السن وأعضاء المجلس القروي، بالإضافة لتقسيم المهام فيما بينهم، وهذا ما نمّى لديهم الصحة الاجتماعية والعمل التعاوني.

هكذا استطاع الطلبة تنظيم وقتهم والتعبير عن مشاعرهم وحل مشاكلهم وتوكيد ذواتهم، فقد تنبه الحس الوطني، ونما حب العمل الجماعي داخلهم، وأصبح لديهم نضوج عقلي وانفعالي واجتماعي، يكفل ذلك بأن يكونوا نواة تغيير نحو مستقبل أفضل، تغرد فيه الطفولة ويطمئن الشاب على مستقبله والمسن على وريثه.

ثالثاً. الإرشاد الإعلامي: ويهدف إلى تعريف الطلبة والأهالي والمعلمين بمهام المرشد التربوي وأدواره. ونفذ الهدف بشكل كبير، حيث زاد التواصل بين المرشد والطلبة، وعبروا عن مشاعرهم تجاهه، وكيف تغيرت المشاعر السوداوية عند بعضهم وبُنيت جسور الثقة، فيقول أحدهم: «لم أكن أعرف أن المرشد صبور ولا يعصّب علينا ويتعامل معنا بشكل مشجع، حتى شعرت أنه مثل أبي أحترمه كثيراً». كذلك فقد دخلت كلمة مرشد في كل بيت في القرية، فالتصق اسمه بصدى المشروع وصيته، وزادت الرابطة الاجتماعية بين المرشد والأهالي، فأصبحوا يحضرون للمدرسة بغرض الاستفسار عن هذا المشروع، وتكون فرصة للحديث عن احتياجات المدرسة، وعن ضرورة متابعة الأهالي للأبناء، وعن عائلات القرية وجذورها بشكل ممتع لا كلل فيه أو ملل، حتى أن إمام المسجد قال في إحدى الجلسات التي استمرت حتى نهاية الدوام: «لقد مر الوقت بسرعة ودون أن نشعر به»، أما المعلمون والإدارة فقد تشجعوا للمشروع، وأبدوا استعدادهم لمساعدة الطلبة ودعمهم، فقد جلس معهم معلم الرياضيات مرات عدة، وكذلك معلم الفن الذي ساعد الطلبة كثيراً في إنتاج رسوماتهم، وفي كل ذلك كان المرشد حاضراً.

رابعاً. الإرشاد المهني أحد الأهداف المهمة للعملية الإرشادية داخل المدارس، وقد نفذ جزء مهم منه، فقد تعرف الطلبة على المهن التي كانت سائدة قديماً، ومارسوا مهنة التصوير والكتابة، وهذا ما يدفع نحو التفكير بالمهن الحياتية، وفي اختيار مهنة تناسب قدراتهم وميولهم وإمكانياتهم.

لكل مجتهد نصيب!

صدمتني المكافأة، مكافأة الجهد والعطاء، والإصرار على تطوير المدرسة، مكافأتي هي نقلي نقلاً فنيا أو تعسفيا -لا أدري ما اسميه- بواسطة مديرية التربية والتعليم من مدرسة المدية الأساسية إلى مدرسة ذكور خربثا بني حارث، التي تبعد عن مكان سكني أضعاف المسافات إذا ما قورنت بقرية المدية، فلكل مجتهد نصيب! إلا أن نصيبي في قسم الإرشاد التربوي هو العودة إلى الإحباط وقتل الإنجاز والتوهان مرة أخرى في دوامة مهام المرشد التربوي التي لا تنتهي، نقلت نقلاً لا أعرف معناه أو سببه، كل ما أعرفه من مسؤولي الإرشاد هو استحالة عودتي لقرية المدية مرشداً تربوياً على الرغم من تقديم مبرراتي المهنية والمنطقية. مكثت فترة وجيزة أتخبط نفسياً عن سبب نقلي، فقد حمل هذا النقل رائحة العقوبة، ولم يطل الأمر حتى وصلني إلى المدرسة الجديدة تنبيه خطي كعقوبة عن خفض مستوى الأداء، هذا جزاء العمل والأداء المميز... تعزيز من نوع آخر! والسؤال الذي يطرح نفسه هل المسؤولون عن نقلي ولفت انتباهي مطّلعون أصلاً على أدائي، فما فعلته هو حلم وفعل على الأرض يصعب أن يُحشر في الأوراق الرسمية.

يوسف الخواجا
مرشد تربوي - مدرسة المدية الأساسية المختلطة